حزن المؤمن

السؤال : يقول اللَّه تعالى فى وصف المؤمنين : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بالنسبة للمؤمنين . فعلام الحزن الذى نراه فى كثير من أفراد الأمة المسلمة ؟

الجواب : العبد الطائع أمانه واطمئنانه ليس له فقط ، ولكن لمن حوله أيضًا .

وإذا تأملنا قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] . فإننا نجد أن من يحيا فى منهج اللَّه ، يحيا فى بشر دائم وسرور متجدد ، إن من يحيا فى ضوء منهج اللَّه يمتلك نعمة من أعظم النعم التى يهبها اللَّه لعباده الطائعين . . إنها نعمة السلام مع النفس .

إن ملكات العبد الطائع تكون منسجمة مع نفسها ومع صاحبها ، لماذا ؟

لأن العبد الطائع ارتضى قيود التكليف الإيمانى وأقبل عليها بمحبة وإخلاص .

لذلك يحيا هذا العبد الطائع فى سلام مع نفسه ومع خالقه ومع الكون ، لا يسمع العبد الطائع إلا كل جميل . يسمع التسبيح بحمد للَّه . . يرى فى كل عمل طاعة للَّه ، وهو موصول فى كل لحظة بخالقه سبحانه مصلياً ، أو ذاكرا أو فاعلاً للخير أو ناهياً عن منكر واصلاً للرحم ، فيسعد به مجتمعه الذى يعيش فيه ؛ ويرضى عنه ربه ومولاه ، وحسبك برضى اللَّه تعالى عنه نعمة لا تعدلها نعمة .

ولنضرب مثلاً قد يكون بسيطًا ، ولكنه يوضح الأمر . لنفترض أن رجلاً صالحًا بنى بيتًا وراعى فى تصميمه راحة السكان . . وراعى فى إيجاره حق اللَّه ، فلم يرفع الإيجار ولم يكلف الناس فوق طاقتهم وقدرتهم تحت

ما يسمى بـ : « خلو الرجل » أو مثل هذه الأسماء التى يقهر فيها القوى الضعيف ، هذا الرجل ماذا يلقى من السكان ؟

بالطبع إن الواحد منهم إذا دخل البيت وأحس بالراحة دعا له ؛ والذين من حوله ينظرون إليه ، فيضربون بأمانته المثل ؛ ويصبح سلوكه قدوة ومثالاً ، يرتفع به عمله الصالح فوق هؤلاء الذين استغلوا الناس وأكلوا أموالهم بالباطل ؛ وضيقوا عليهم وحبسوا عنهم حتى مسارات الهواء النقى ، هؤلاء يتلقون فى كل وقت لعنة الناس وغضبهم .

أما الذى يحسن عمله ويرعى حق اللّه قبل أي حق آخر . . فهو مصدر اطمئنان وبشر له ولمن حوله .

ولنفترض أن واحدًا منا ذهب إلى صانع أحذية . . وأجاد الرجل صناعتها وجعل وقته فيها هو وقت متعة ؛ لأنه يؤدى عمله بإتقان ويرعى حق اللّه ، من المؤكد أن من يرتدى هذا الحذاء . . كلما مشى به خطوة وتذكر أنه مستريح بهذا الحذاء . . سوف يدعو لصانعه بالبركة والخير .

أما إذا كان صانع الحذاء يرغب فى الربح فقط ، ويتعجل العمل ولا يتقنه ، فإنه يتلقى اللعنة من الناس .

إن نعمة الجمال ونعم الرحمن تشع فى الكون بالعمل الصالح من العبد الصالح لذلك لا يلمسه الحزن أبدًا . . وإن أصابت العبد الطائع الصالح أحداث ليس له دخل فيها فإنه يرفع يديه إلى السماء حامدًا اللّه ؛ لأنه أعلم بحقائق الحكمة التى لا نعرفها .

ولهذا فأنا أقول دائمًا : إياك أن تعتقد أن ربك أخطأ فى حكم ما أبدًا . . وعلى العبد الصالح أن يتلقى كل أمر من اللّه كما علمنا الأثر الصالح : « أحمدك ربى على كل قضائك وجميع قدرك كله حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك » .

ثم لنسأل أنفسنا : لماذا يحزن الإنسان ؟ والجواب : إن الإنسان يحزن لافتقاد شىء سار . . والعبد الطائع الصالح الذى يسير فى حياته بنور منهج اللّه يعرف أن اللّه قد يعطيه شيئًا أكثر سرورًا .

وعندما ألتقى بواحدة تبكى ؛ لأن ابنها الوحيد سافر لبعثة فى الخارج يعود بعدها مصدر فخر لأسرته ووطنه بعمله ونجاحه .

مثل هذه السيدة أقول لها : ألا تعرفين أن اللّه أدخر لك فخرًا أكثر سرورًا بابنك ، وعندما ألتقى بواحدة تبكى ابنها الذى فقدته فى الحرب أو فى ظروف قاسية استشهد فيها فإني أقول لها :

كيف لا تؤمنين أنه عند اللّه يحيا ويرزق ويعيش بأسلوب خاص تفوق متعه كل متع الدنيا التى قد يصورها لك خيالك . . بينما كل متع الدنيا هي عطاء قليل بالنسبة لعطاء الآخرة[١] .

لكن ليس معنى ذلك أن الإيمان يقتضى أن يتحول الإنسان إلى صخر .

لا . . الإيمان يقتضى أن نعطى العواطف فرصتها للتعبير ، ولكن بلطف .

إن الانفعال بالأحداث فى ظلال الإيمان يختلف عن الانفعال بالأحداث وحدها ؛ فالذى يصاب بكارثة وهو غير مؤمن يدمره اليأس والحزن .

أما الذى يستقبل الأحداث الخارجة عن إرادته فى نور منهج اللّه فإن الأمر بالنسبة إليه يختلف .

ولقد علّمنا رسول اللّه الشعرة الفاصلة بين اليأس وبين الحزن الجميل . فماذا قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عند فقده لابنه إبراهيم ؟

---

(١) روى مسلم [١٨٨٧/ ١٢١] عن عبد اللّه ابن مسعود رضى اللّه تعالى عنه قال : سألنا عبد اللّه هو بن مسعود عن هذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] قال أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا . ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

قال الرسول صلى اللّه عليه وسلم : « إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول ما يسخط الرب »[١] .

obeikandl.com

(١) روى ابن ماجه [١٥٨٩] عن أسماء بنت يزيد ؛ قالت : لما توفي ابن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال له المعزى : « إما أبو بكر وإما عمر » أنت أحق من عظم اللّه حقه ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب . لولا أنه وعد صادق وموعود جامع وأن الآخر تابع للأول لوجدنا عليك يا إبراهيم أفضل مما وجدنا . وإنا بك لمحزونون » . وحسنه الألبانى .
والحديث فى البخارى [١٣٠٣] ومسلم [٢٣١٥/ ٦٢] عن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه قال : دخلنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أبي سيف القين وكان ظئرا لإبراهيم عليه السلام فأخذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى اللّه تعالى عنه : وأنت يا رسول اللّه ؟
فقال يا ابن عوف : إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى . فقال صلى اللّه عليه وسلم : إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

قصة بقرة بنى إسرائيل

السـؤال : ما هي قصة بنى إسرائيل مع البقرة ؟ وما العبرة فيها ؟

الجـواب : وردت قصة البقرة هذه فى القرآن الكريم فى حوار بين نبي اللّه موسى عليه السلام وقومه على النحو التالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ۖ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة] .

إذن . . اللّه سبحانه وتعالى أمر بنى إسرائيل أن يذبحوا البقرة ، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة وأخذوا بعضًا منها ليضربوا به القتيل . لعادت الحياة إليه ونطق باسم قاتله وانتهى الأمر . . ولكنهم بدلاً من أن يستقبلوا أمر اللّه سبحانه وتعالى بالتنفيذ . . استقبلوه أولاً بعدم التصديق ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ وظلوا يشددون على أنفسهم بطلب أوصاف وصفات للبقرة حتى جاء الإيضاح من الحق تبارك وتعالى بعمر البقرة ولونها وكل ما يخصها .

وكان لهذا حكمة عند اللّه سبحانه وتعالى لخدمة قضية إيمانية أخرى ، وقد كان هناك رجل صالح من بنى إسرائيل يتحرى الدقة فى كسبه ولا يرضى إلا بالحلال ؛ وكان يبتغى وجه اللّه فى كل ما يفعل ، وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هي بقرة صغيرة وكان ابنه طفلاً . . واحتار الرجل يوصى من

على هذه البقرة التى هي كل ثروته التى تركها لابنه وزوجته ؟ واتجه إلى اللَّه سبحانه وتعالى وقال : « اللهم إنى استودعتك هذه البقرة فاحفظها لابنى حتى يكبر » لأنه لم يجد أمينًا على ابنه إلا اللَّه سبحانه وتعالى . ثم قال لزوجته : إنى لم أجد أحدًا آمن من ربى استودعته البقرة الصغيرة !

وسألته زوجته أين البقرة ؟ قال : أطلقتها فى المراعى ؛ ثم أسلم الروح .

وكبر الابن فحكت له أمه ما حدث . فقال الابن : وأين أجد البقرة لأستردها ؟ قالت الأم : لقد استودع أبوك البقرة خالق الكون . فقل إنى أتوكل على اللَّه وابحث عنها . . فقال الابن : « اللهم رب إبراهيم ويعقوب رد على ما استودعك أبى » ثم انطلق إلى الحقل فوجد البقرة . . وكانت هذه هي البقرة التى ذُكرت أوصافها لبنى إسرائيل . . فذهبوا ليشتروها فقال الابن : لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبًا فدفعوا له .

وهكذا نجد أن صلاح الأب يجعل اللَّه حفيظًا على أولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم . وقد أوضح اللَّه تعالى هذه الحقيقة فى سورة الكهف . . عندما جاء العبد الصالح وبنى الجدار ليحفظ كنز يتيمين كان أبوهما صالحًا . . واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٨٢] .

وهكذا كانت الحكمة الإلهية أن الرجل الصالح الذى استودع اللَّه كل ما يملك . . بارك اللَّه له فيه ووجد ابنه عندما بلغ سن الشباب ثروة كبيرة .

وعندما ذبحوا البقرة . ضربوا ببعضها القتيل كما أمرهم اللَّه سبحانه وتعالى فإذا به يبعث وينطق باسم قاتله ثم يموت مرة أخرى . . وهكذا سميت السورة باسم سورة البقرة إثباتًا لقضية أساسية فى الدين وهي قضية الإيمان بالبعث .

ما معنى سورة مكية وسورة مدنية ؟

يجب أن نفهم أولاً ما هو مكى وما هو مدنى ؛ فمكة والمدينة مكانان مقدسان ، الأول : شهد بداية النبوة وبداية نزول القرآن على النبى صلى اللّه عليه وسلم . . والثانى : كان مهاجر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فعندما نقول مكى ومدنى فى القرآن الكريم ، لابد أن نلاحظ عدة أشياء :

أولاً : الحدث الذى نزلت من أجله الآية .

وثانيًا : مكان الحدث .

وثالثًا : الزمان الذى نزلت فيه .

فكل فعل له زمن يقع فيه ومكان يحدث فيه ، وفاعل ، ومن يقع عليه الفعل ، وسبب للحدوث وقدرة على الفعل .

وبالنسبة لنزول القرآن الكريم الفاعل هو اللّه سبحانه وتعالى والذى نزل عليه القرآن هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، والمكان هو إما مكة وإما المدينة ؛ إذن . .فنزول القرآن الكريم له زمان ومكان وسبب نزول . ولما كان القرآن الكريم هو هداية للبشرية إلى منهج اللّه تعالى ؛ فإن اللّه سبحانه وتعالى وضع فى القرآن الكريم دستورًا سماويًا لكل متطلبات البشرية حتى يرث اللّه تعالى الأرض ومن عليها . . فبنزول القرآن الكريم اكتملت الرسالات السماوية . فجاء القرآن الكريم بقصة خلق السموات والأرض وقصة خلق الإنسان . . وجاء بقصص الرسل والأنبياء الذين سبقوا نزول القرآن الكريم وصحح ما زيف منها وعدَّل ما حُرف منها لتأتى صادقة فيما أبلغ به الرسل عن اللّه . وجاء ناسخًا لكل ما عبثت به أيدى البشر فى الرسالات السابقة على نزول القرآن ، ومصححًا لكل كلام بشرىّ أضيف إلى منهج اللّه ونسب إليه زورًا وبهتانًا ، ومصرحة

obeikandl.com

بما كتمه أهل الديانات القديمة وأحبار اليهود ورهبان النصارى عن الناس .

إذن . . القرآن يفضح كل تحريف أو كتم أو إخفاء أو تزييف أو إضافة بشرية لدين اللّه فى الرسالات السابقة .

ولقد اختلف العلماء حول بعض الآيات وهل هي مكية أو مدنية .

فالذين أخذوا بعنصر الزمان مقياسًا قالوا : إن كل سورة من القرآن الكريم نزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعد الهجرة تعتبر مدنية . . حتى ولو نزلت فى مكة . والذين اتخذوا مقياس المكان قالوا : إن كل سورة نزلت فى مكة فهي مكية ، وكل سورة نزلت فى المدينة فهي مدنية ، وذلك بصرف النظر عن أنها نزلت قبل الهجرة أو بعدها . . ذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نزلت عليه سور فى مكة بعد الهجرة .

ونحن نقول : إنه لا خلاف بين علماء المسلمين كما حاول البعض أن يصوره ؛ بل إن كل فريق أخذ الموضوع من زاوية معينة . . بعضهم نظر إلى زاوية المكان ، وبعضهم نظر إلى زاوية الزمان . ولم يختلف العلماء فى سور القرآن الكريم ذاته أو آياته .

عندما ننظر إلى سورة البقرة نجد أنها من أوائل السور التى نزلت بالمدينة ففيها الطابع المدنى والطابع المكى ، الطابع المكى فى سور القرآن الكريم هو التركيز على العقيدة ، ذلك أن الآيات والسور المكية نزلت ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يواجه الوثنيين عبدة الأصنام ، والكفار الذين لا يؤمنون بدين وعددًا من أهل الكتاب الذين ضعفت صلتهم بالسماء ؛ بعدما حرفوا ما أنزل اللّه على رسلهم ؛ ونسوا ما ذكروا به ؛ وكان لابد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يواجه هؤلاء جميعًا بما أنزل اللّه تعالى عليه فى القرآن ويبين لهم أنهم على الباطل ، وأنهم يعبدون آلهة لا تنفع ولا تضر . . آلهة صنعوها بأيديهم من أدنى أجناس الأرض وهي الحجارة . . بينما اللّه سبحانه وتعالى ميز الإنسان وجعله خليفة فى هذا الكون .

وكان لابد للقرآن أن يخبرهم أن هناك بعثًا بعد الموت ، وأن هناك جنة ونارًا وأن الحياة الحقيقية ليست الدنيا ولكنها الآخرة ، وكان لابد أن يحذرهم من عذاب اللّه . ومن يوم سيلقونه فيه ولا يستطيع أحد منهم هربًا

من ذلك اليوم العظيم ، وكان لابد أن يلفتهم إلى آيات اللّه فى الكون الدالة على أنه الموجد والخالق . . وأن يواجه ما يأتى به أحبار اليهود من أسئلة ظاهرها الاستفهام ، وحقيقتها محاولة الطعن فى الإسلام .

وكانوا يظنون أنه ربما يأتى محمد عليه الصلاة والسلام بشىء من عنده فيخطئ فجاء القرآن ليساوى بين البشرية كلها . . فلا فضل لغنى لماله ولا قلة لفقير فى الأجر ، بل الناس أمام اللّه سواسية كأسنان المشط[١] .

كان هذا هو أساس الدعوة فى مكة . . إيمان بأنه لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه . وتثبيت للمؤمنين فى الفترة التى كانوا فيها قلة وكانوا فيها ضعفاء .

وتثبيت الإيمان كان يقتضى تذكيرهم دائمًا بأن اللّه معهم ، وإن ماتوا شهداء دخلوا الجنة بلا حساب . وإن ماتوا على دين الإسلام دخلوا الجنة . ومن يبقى على كفره عُذب فى النار ، وأن كل مشقة فى سبيل اللّه لها أجر فى الآخرة حتى يتحملوا المشقة والإيذاء وهم صابرون .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى مجتمع المدينة . . فهناك صورة أخرى وُوجه فيها الإسلام بالكفار وعبدة الأوثان ومزورى التوراة من اليهود وعدو جديد هم المنافقون . . وقد كانت هناك عداوة جاهلة فى مكة ، أما فى المدينة فقد ووجه الإسلام بعداوة عن علم وذلك من اليهود الذى هم أهل كتاب ، وقد جاء كتابهم بأوصاف وصفات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأمته ، ووجه

---

(١) روى صاحب مسند الشهاب [١/ ١٤٥/ ١٩٥] عن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الناس كأسنان المشط .

وفي رواية كما فى كنز العمال [٢٤٨٢٢] الناس سواء كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالعبادة ولا تصحبن أحدا لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له. وعزاه لابن لال عن سهل بن سعد رضى اللّه تعالى عنه .

وفي رواية كما فى الكنز [٢٤٨٢٣] الناس سواء كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالعافية والمرء يكثر بإخوانه المسلمين ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل الذى ترى له عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم فإنهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء . وعزاه للحسن بن سفيان وابن بشر الدولابي والعسكري فى الأمثال عن سهل بن سعد ؛ وابن عدى فى الكامل عن أنس رضى اللّه تعالى عنه .

بعداوة آخرى وهم : المنافقون . . فلم يكن هناك نفاق فى مكة ، فالضعيف والمضّطَهَدُ لا يُنَافق . . فمن ذا الذى كان يدعى فى مكة أنه مؤمن وهو كافر ليكون عرضة للعذاب والإيذاء والاضطهاد ؟ ولكن فى المدينة عندما قوى الإسلام وكانت له دولة ظهر فى المجتمع النفاق . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة : ١٠١] .

وهكذا واجه الرسول صلى اللّه عليه وسلم فى المدينة عداوة من لون جديد ليخوض صراعًا مع المنافقين واليهود . . وبجانب ذلك كله كان هناك المجتمع الإسلامى الوليد . . وكانت هناك مهمة تربية هذا المجتمع لكي ينهض بالدعوة ، وكانت هناك دولة ، وكانت هناك غزوات ، وكان هناك أحكام وأوامر تنظم عمل المجتمع المسلم وترتب مهمته .

كل هذا لم يكن موجودًا فى مكة ، فقد شاء اللّه تبارك وتعالى أن تكون آيات القرآن الكريم التى نزلت فى مكة فى معظمها عن العقيدة وعن الجنة والنار ، وعن الأجر الذى ينتظر المؤمنين فى الآخرة ، وعن العذاب الذى ينتظر الكفار .

وكانت الآيات فى المدينة عن الأحكام والمجتمع الإسلامى والمعاملات وكيفية مجابهة اليهود ، واتقاء المنافقين . وإن كانت الآيات فى المدينة لم تهمل العقيدة بل أكدتها . . وعندما جاء جبريل عليه السلام ليرتب المصحف مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الترتيب الذى نعرفه الآن . . كان الإسلام قد انتشر ودخل الناس فى دين اللّه أفواجا . لذلك كانت المهمة الأولى أن يعرف هؤلاء المسلمون أحكام دينهم . . وما يجب أن يفعلوه ، وما عليهم ألا يفعلوه .

يريد اللّه سبحانه وتعالى أن يعلم المسلمين الذين آمنوا بأنه لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه . . يريد أن يعلمهم أحكام دينهم . فالعقيدة موجودة وبقى أن نعمل ونطبق المنهج فى افعلْ ولا تفعلْ حماية وصيانة للعقيدة والمجتمع .

معنى كلمة : ويل ، فى القرآن

السؤال : ورد فى القرآن الكريم كلمة « ويل » فما معناها وما هو تفسير فضيلتكم لها ؟

الجواب : يقول اللَّه تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة : ٧٩] . هذه الآية الكريمة جاءت فى القسم الثانى من اليهود وهو المقابل للأميين ، وهم : إما أميون لا يعلمون الكتاب . . وإما يعلمون ولكنهم يغيرون فيه ويكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند اللَّه . ولذلك توعدهم اللَّه تبارك وتعالى فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم ﴾ ، وبدأ الآية بالوعيد بالجزاء مباشرة .

ونلاحظ أن كلمة : « ويل » فى اللغة تستعمل معها كلمتا : « ويح » و « ويس » . . وكلها تعنى الهلاك والعذاب . . وتستعمل للتحسر على غفلة الإنسان عن العذاب . . واقرأ قوله تعالى : ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَىٰهَا ﴾ ؛ وقوله تعالى : ﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٩٧] .

هذه الويلات تعنى : الحسرة وقت رؤية العذاب . . وقيل : إن الويل وادٍ فى جهنم يهوى الإنسان فيه أربعين خريفًا والعياذ باللَّه[1] .

---

(١) روى الترمذى [٣١٦٤] وأحمد فى المسند [٣/ ٧٥] واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه [٧٤٦٧] عن أبي سعيد رضى اللَّه تعالى عنه عن النبى صلى اللَّه عليه وسلم قال : ويل واد فى جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره ، والصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا يهوي به كذلك فيه أبدا . وقال الألبانى : ضعيف ، وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

قَوْلُهُ : « الْوَيْلُ وَادٍ » أَيْ إِسْمُ وَادٍ « يَهْوِى » أَيْ : يَسْقُطُ قَالَ فِي مُخْتَارِ الصِّحَاحِ : هَوَى يَهْوِي كَرَمَى يَرْمِي هَوِيًّا بِالْفَتْحِ سَقَطَ إِلَى أَسْفَلَ « أَرْبَعِينَ خَرِيفًا » أَيْ : عَامًا . =

والحق تبارك وتعالى : ينذر الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم ينسبونه إلى اللّه تعالى بأن عذابهم يوم القيامة سيكون مضاعفًا .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ .. ألم يكن يكفي أن يقول الحق : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ويكون المعنى مفهومًا ؟ يكتبون الكتاب بماذا ؟ ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ؟ نقول لا ؛ لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل .. رئيس الدولة مثلاً يتصل بأحد وزرائه ويقول له : ألم أكتب إليك كتابًا بكذا .. فلماذا لم تنفذه ؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ! ولكنهم كتبوه بأمره ، ورؤساء الدول نادرًا ما يكتبون كتبًا بأيديهم .

إن اللّه سبحانه وتعالى يريد هنا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم .. فهم لا يكتفون مثلاً بأن يقولوا لغيرهم : اكتبوا .. ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام اللّه سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تمامًا .. فليست المسألة نزوة عابرة .. ولكنها مع سبق الإصرار والترصد .

وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمنًا قليلاً ، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية .. يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان .

ولقد كان أهل الكتاب فى الماضى إذا اختلفوا فى شىء .. ذهبوا إلى الكهان والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم .. لماذا ؟ لأن الناس حين يختلفون يريدون أن يستتروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا مخطئين .. يعنى لا أنهزم أمامه ولا ينهزم أمامى .. وإنما يقولون ارتضينا حكم فلان .. فإذا كنا سنلجأ إلى تشريع السماء ليحكم بيننا .. لا يكون هناك غالب ومغلوب أو مهزوم ومنتصر .. ذلك حين أخضع أنا وأنت لحكم اللّه يكون كل منا راضيًا بنتيجة هذا الحكم .

= قَالَ الْخَازِنُ : الْوَيْلُ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا الْعَرَبُ لِكُلِّ مَنْ وَقَعَ فِي هَلَكَةٍ وَأَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْوَيْلُ شِدَّةُ الْعَذَابِ ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي سَعِيدٍ هَذَا .

ولكن الأحبار والرهبان أخذوا يصدرون فتاوى متناقضة كل منهم حسب مصلحته وهواه .. ولذلك تضاربت الأحكام فى القضايا المتشابهة ؛ لأنه لم يعد الحكم بالعدل .. بل أصبح الحكم خاضعًا لأهواء ومصالح وقضايا البشر .. وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند اللَّه .. إنما يريدون أن يخلعوا على المكتوب قداسة تجعل الإنسان يأخذه بلا مناقشة .. وبذلك يكونون هم المشرعون باسم اللَّه .

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند اللَّه ؟! .. الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .. وقد قلنا : إن الإنسان لا يشترى الثمن .. ولكنه يدفع الثمن ويشترى السلعة ولكنك هنا تدفع لتأخذ ثمنًا . تدفع من منهج اللَّه وحكم اللَّه فتغيره وتبدله لتأخذ ثمنًا موقوتًا .. واللَّه سبحانه وتعالى يعطيك فى الآخرة الكثير ولكنك تبيعه بالقليل .. وكل ثمن مهما بلغ تأخذه مقابل منهج اللَّه يعتبر ثمنًا قليلاً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .. الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ .. ثم جاء قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ فساعة الكتابة لهم ويل وعذاب ، وساعة بيع الصفقة لهم ويل وعذاب ، والذى يكسبونه هو ويل وعذاب .

لقد انتشرت هذه المسألة فى كتابة صكوك الغفران التى كانت تباع لمن يدفع أكثر . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .. وكلمة كسب تدل على عمل من أعمال جوارحك يجلب لك خيرًا أو نفعًا وهناك كسب وهناك اكتسب .. كسب تأتى بالشىء النافع ، واكتسب تأتى بالشىء الضار .. ولكن فى هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .. وفى آية ثانية قال : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ [البقرة : ٨١] .

فلماذا تم هذا الاستخدام ؟ نقول : إن هذا ليس كسبًا طبيعيًا ، إنما هو افتعال فى الكسب .. أى : اكتساب .. ولابد أن نفهم أنه بالنسبة لجوارح الإنسان . فإن هناك القول والفعل والعمل .. بعض الناس يعتقد أن هناك

القول والعمل . . نقول لا . . هناك قول هو عمل اللسان . . وفعل هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان . . وعمل وهو أن يوافق القول الفعل . . لذلك فإن اللّه سبحانه وتعالى قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ ﴾ [الصف] .

إذن . . فهناك قول وفعل وعمل . . والإنسان إذا استخدم جوارحه استخدامًا سليمًا يفعل ما هو صالح له . . فإذا انتقل إلى ما هو غير صالح إلى ما يغضب اللّه فإن جوارحه لا تفعل ولكنها تفتعل . . تتصادم ملكتها بعضها مع بعض والإنسان وهو يفتح الخزانة ليأخذ من ماله يكون مطمئنًا لا يخاف شيئًا . . والإنسان حين يفتح خزانة غيره يكون مضطربًا وتصرفاته كلها افتعال . . والإنسان مع زوجته منسجم فى هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون فى وضع مخالف . . إنها حالة افتعال . . وكل من يكسب شيئًا حرامًا افتعله . . ولذلك يقال عنه اكتسب . . إلا إذا تمرس وأصبح الحرام لا يهزه ، أو ممن نقول عنهم معتادو الإجرام . . فى هذه الحالة يفعل الشىء بلا افتعال ؛ لأنه اعتاد عليه . . هؤلاء الذين وصلوا إلى الحد الذى يكتبون فيه بأيديهم ويقولون هذا من عند اللّه . . أصبح الإثم لا يهزهم ، ولذلك توعدهم اللّه بالعذاب مرتين فى آية واحدة .

obeikandl.com